بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أوروبا بين أحلام الماضي والواقع المرير

الخبر:

ميرتس يناشد ترامب عدم إثارة مفاجآت خلال لقائه ببوتين. (رويترز)

التعليق:

أولاً: تعيش قارة أوروبا أزمات كبرى أفقدتها صوابها؛ منها تداعيات خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، والتوترات في العلاقات مع أمريكا، والحرب الروسية الأوكرانية، وتداعيات حرب أمريكا على إيران، فضلاً عن الخلافات بين دولها والانقسام داخل المجتمع الواحد، والانقسامات المتجذرة بين شعوبها، وأزمة الطاقة، والصراعات التجارية مع الصين وغيرها.

هذه الأزمات الضخمة جعلت أوروبا قارة غير قادرة على اتخاذ قرار موحد، ولو تعلق الأمر بالأمن والمصالح الاستراتيجية. فقد ذكرت وكالة رويترز أن المستشار الألماني فريدريش ميرتس ناشد رئيس أمريكا ترامب عدم إثارة أية مفاجآت خلال المحادثات المتوقعة حول أوكرانيا الأسبوع المقبل مع رئيس روسيا بوتين في الصين. وأضاف: "لذا، أود أن أوجه رسالتنا إلى الولايات المتحدة بوضوح تام: رجاءً، لا مفاجآت. استمروا في اللعب كجزء من فريق أوروبا وفريق أوكرانيا".

ثانياً: لقد بات الأوروبيون يدركون مسألة الاستقلال الاستراتيجي الأوروبي، ويعني هذا المفهوم: مدى قدرة أوروبا على اتخاذ قراراتها الأمنية والعسكرية بشكل مستقل، وتطوير أدواتها الدفاعية دون الاعتماد الحاسم على الولايات المتحدة.

هذا الحلم الوردي يصطدم بمعضلات تجعله حلماً مستحيلاً؛ ليس فقط بسبب ضعف بنية أوروبا العسكرية والأمنية، بل بسبب الانقسامات السياسية بين دولها أيضاً. ففي الوقت الذي تنادي فيه فرنسا بتعزيز فكرة الاستقلال الدفاعي، ترى دول أخرى - خاصة بعض دول شرق أوروبا مثل بولندا - أن الضمانة الأمنية الحقيقية لا تزال مرتبطة بأمريكا، لا سيما في ظل تهديدات روسيا.

وتشير دراسة أعدها معهد بروغل للأبحاث في بروكسل، ومعهد كيل للاقتصاد العالمي في ألمانيا، إلى أن أوروبا يتعين عليها إنفاق ما بين 260 و270 مليار دولار سنوياً في استثمارات دفاعية لتأمين نفسها دون دعم أمريكا، وهو ما يعادل 1.5% من الناتج الإجمالي للاتحاد الأوروبي.

وجاءت الأحداث الأخيرة لتظهر الفارق الكبير بين الطموح السياسي والقدرة التنفيذية؛ فأوروبا باتت كرجل عجوز أصبح مشلولاً، قعيد كرسي متحرك، تتقاذفه أيدي أمريكا إلى مهاوي الردى.

وفي مثال بسيط حول الانقسام السياسي الأوروبي، نشرت مجلة فورين بوليسي مقالاً لباحثة السياسة الأوروبية المرموقة كريستي رايك، ميزت فيه بين أربع مجموعات من الدول الأوروبية من حيث علاقاتها مع ترامب:

المجموعة الأولى: تضم فئة الزعماء الشعبويين اليمينيين الذين يشاركون ترامب رؤيته للعالم ويقلدون أسلوبه، مثل رئيس وزراء المجر فيكتور أوربان، وبدرجة أقل رئيسة وزراء إيطاليا جورجيا ميلوني، ورئيس وزراء سلوفاكيا روبرت فيتسو.

المجموعة الثانية: تضم بولندا، ودول شمال أوروبا، ودول البلطيق، ومعظمها من بين أعلى الدول إنفاقاً على الدفاع في حلف الناتو، وتبذل جهوداً براغماتية لبناء علاقة فعالة مع أمريكا، وتحرص على تعزيز التعاون الاستراتيجي معها، ولديها رؤية واضحة للأمن. وترى هذه المجموعة أن دور أمريكا لا غنى عنه، وأنه لا سبيل إلى استبداله مهما بلغ حجم الضغوط التي تمارسها وقدر التنازلات التي تطلبها؛ خاصة أن هذه الدول هي الأكثر تعرضاً لروسيا والأكثر قلقاً بشأن الإنفاق الأوروبي غير الكافي على الدفاع، وتشعر بخطر أكبر من احتمال عدوان روسيا عليها، ومن خطر تخلي أمريكا عن حلفائها الأوروبيين الذين ترى هذه المجموعة على أنهم غير راغبين في تحمل تكاليف أمنهم.

المجموعة الثالثة: تضم ألمانيا وحدها، وتدور اهتماماتها حول التأكيد على مبدأ حرمة الحدود، وأن ذلك ينطبق على كل بلد، بغض النظر عما إذا كان يقع إلى الشرق أو إلى الغرب، ويتعين على كل دولة أن تلتزم به، سواء أكانت دولة صغيرة أم دولة قوية.

المجموعة الرابعة: تمثلها فرنسا، التي ترى في التوتر الراهن بين ضفتي الأطلسي في ظل إدارة ترامب فرصة لها لتحقيق طموحها بقيادة أوروبا.

ختاما: يطرح دوغلاس موراي في كتابه "موت أوروبا الغريب"، الصادر عام 2017، التخوف من نهاية أوروبا بطريقة شاهد عيان وسرد شخصي لقارة تقع في حالة انتحار؛ إذ يسعى من خلال نصه إلى تحفيز الأوروبيين على تعزيز الثقة بالدفاع عن أنفسهم والمقاومة ليكونوا قادرين على التغيير الشامل للمجتمع. لكن قطعاً ثمة تحديات لا حصر لها؛ إذ تراكمت الأزمات على القارة من المنحى السياسي إلى الاقتصادي فالثقافي، متمثلة في فشل التعددية الثقافية مع قضايا الهجرة واللاجئين التي انفجرت خلال العقود الأخيرة.

وفيما يبدو، تتجه أوروبا نحو الموت المتسارع والغريب بأيدي زعمائها، استجابة للعجز أو انسجاماً مع مخطط أمريكا؛ فلعل أوروبا تذوق اليوم ما أذاقته لدول العالم إبان احتلالها لها.

قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

حسن حمدان